مُقَدِّمَة

يدور هذا الكتاب حول الإبداع بوصفه أعدل الأشياء قسمة بين البشر! فالناس يولدون وهم مزودون بقدرات عقلية متميزة، وبإمكانات تتواصل بغير انتهاء، وبمواهب شتى، وبخيال خصب، بيد أن هذه القدرات، وتلك المواهب وهذه الإمكانات تظل خبيئة طي النفس، تحتاج لمن يخرجها من حيز الكمون إلى حيز التحقق الخلاق في الواقع.

وهذا التحقق مشروط بنسق تعليمي متميز، يتجاوز حدود الحفظ والتلقين والاتباع واستظهار المعلومات، إلى الفهم والتأويل وإنتاج المعرفة والإبداع؛ وبيئة ثقافية محفزة على الإبداع، وإمكانات اقتصادية مهيئة للإبداع، ومساعدة على تفجير الطاقات الكامنة، ومجتمع يشجع على الإبداع ويقيم وزنا للموهبة والقدرة والإمكانية.

ولعل القاسم المشترك في عالم الإنسان يكمن في الإبداع، فالإبداع فينا، هو نحن، هو الإنسان بما هو إنسان، والاختلاف ليس في جوهر الإبداع. ولكن في درجته، التي لا تتحقق إلا من خلال الإيمان بأن الإنسان إمكانية مفتوحة تنطوي على وجود إنساني يتجلى في ثراء نفسي وعقلي ممتلئ، مفعم بالإمكانات والقدرات، وأن العقل الإنساني واحد، ومن ثم فحضارة الإنسان واحدة، بيد أن ثقافاته متعددة.

والعقل قادر على الرحيل والسكن حيث تكون البيئة مخصبة للإبداع ومحفزة له، ولهذا تغيرت مواقع الحضارة من مكان إلى مكان، ومن موقع إلى آخر، تغيرًا لم يكن للفروق الجينية فيه أى دخل.

يقول مايناردسميث: إن الفرق الجينى لم يكن مسئولا لا عن تفوق العرب فى الأبحاث العلمية بالمقارنة مع أوربا قبل ألف عام، ولا عن انقلاب هذا الوضع.

وفى عصر سمته الأساسية أنه عصر العلم والتكنولوجى، يصبح الإبداع مطلبا لا مناص منه، لمن أراد أن يجد لنفسه موقعًا متميزًا على خريطة عالم يتقدم من خلال وثبات علمية كيفية تتجاوز كل قدرة على التنبؤ.

والإبداع فى صميمه تجاوز للمألوف، وهذا التجاوز لا يتحقق إلا من خلال مسايرة التيارات الكوكبية التى تنشغل - فى كثير من الأحيان - بتعليم الطفل، باعتباره حجر الزاوية فى المجتمع الكوكبى الجديد، حيث الأطفال فيه هم قادة المستقبل فى إحداث التغيير المطلوب.

ولا يتأتى ذلك إلا عن طريق تعليمه وتدريبه على إنتاج المعرفة، بدلاً من تدريبه على أن يكون مستهلكا للمعرفة.

وإنتاج المعرفة يحتاج إلى إطلاق العنان لخيال أطفالنا، وقد أصاب أنشتين عندما قال: (العلم ثمرة للخيال)، وما نظرية النسبية إلا نتاجًا لخيال خصب ممتلئ بالقدرة والإمكانية.

وعندما نسمح لأطفالنا بالدهشة، التى هى جوهر الإبداع، ولا نقهر فى داخلهم روح التساؤل، ولا نضع حدودًا لتعطشهم المعرفى، ولا نُحبط فى داخلهم أى نزوع صوب البحث والتنقيب والاستكشاف.

عندما نفعل ذلك، نكون قد بدأنا بوضع الجذور الجنينية لجيل بمقدوره أن يُحدث التغيير الإبداعى المطلوب.

ويحتاج الإبداع إلى مناخ علمى يقوم على التسامح، حيث تعدد الآراء أمر مشروع، فلا توجد إجابة واحدة صحيحة ومطلقة، ولا أنموذج فكرى راسخ لا يمكن تغييره، ولا تفكير قطعى صارم لا بديل عنه، فكل حجة لها حجة مضادة، وكل سؤال من الممكن أن يتحول إلى إشكالية تستلزم حلولاً متعددة.

ومن شأن ذلك، ضرورة إعادة النظر فى نظام الامتحانات الذى يقوم على الأنموذج الواحد، والرؤية الواحدة، والمعنى الواحد، وبقدر مسايرة التلميذ وخضوعه المطلق للمقرر الدراسى، يكون نجاحه وتفوقه.

فالتفوق عندنا معناه عدم الخروج عن النص، عن الإجابة الواحدة، ومعناه أيضا أن تكون مجموعة المتفوقين نسخة (كربونية) واحدة، بغير إضافة أو تجديد الأمر الذى أدى إلى تفشى الدروس الخصوصية على نحو غير مسبوق.

ولعل ذلك من الأسباب التى أدت إلى إقامة المؤتمر القومى للموهوبين، تحت رعاية السيدة سوزان مبارك، قرينة السيد رئيس الجمهورية،

والذى يمثل وعيًا قوميًا بأن الإبداع هـو الحـل لتحديـات القـرن الحـادى والعشرين، وأن الموهبة تفرد فى الإمكانات الإنسانية تستوجب الحـرص والعناية، وأن السعى لتوفير الفرص والإمكانات والمناخ الاجتماعى والبيئة الثقافية المنفتحة على العـالم بغير انغلاق، والمسكة بقيم روحيـة وثقافيـة بغير تطرف، هو البداية الحقيقية للالتحام بعصرٍ، المعرفة فيه قوة، وثروة ووجود.

والله من وراء القصـد

محمد إبراهيم عيد

اغسطس ٢٠٠٠

obeikandl.com